قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ رواه مسلم

البناء العلمي

البناء العلمي

المرحلة الثانية

الفصل الدراسى الأول

تفسير جزء تبارك

د. عبدالعزيز السدحان

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تابع سُورة نوح.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

- هذه مِن رَحمة نوح بقومه، ومِن فِقه الأنبياء في دعوة قَومهم أنَّهم يَسلكون شتى السُّبل في سبيل إصلاحهم، فنوحٌ عَانَى مِن قَومه مُعاناة شَديدة، كما عَانَى أولوا العزم مِن الرسل، وَسَلَكَ مَعهم -كما ذكر الله تعالى- في دعوتهم طرقًا، فدعاهم ليلًا ونهارًا، يعني: لا يسمعه أحد، ولم يجاهر بذلك، بل كان كما في بعض التفاسير يأتيهم ويخاطبهم بينه وبينهم، ويتلطف معهم على طول المدة التي قضاها معهم، وهذه طريقة مِن طُرق دعوته -عليه الصلاة والسلام- لقومه، وأخبر أيضًا أنَّ دعوته لهم بهذه الطريقة وهذا التلطف لم تزدهم إلا فرارًا.
- وصاحب الخير لا ييأس ولا يقنط، بل عليه الاستمرار، أمَّا إذا عَانَدَ المدعو، واستكبر وأصر، فلا يضر إلا نفسه، والعبرة ليست بالاستجابة، وإنما العبرة أن يستفرغ الداعي وُسعه في دعوة الناس للخير، فإن استجابوا فله ولهم، وإن أعرضوا فله وعليهم.
- ولهذا لا تربط النتائج بنجاح النصح، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي يعرفه الجميع: «يأتي النبي ومعه الرهط ومعه الرهيط» ، إلى أن قال: «ومعه الرجلان، ومعه الرجل، ويأتي النبي وليس معه أحد»[1] ، وأذكر كلمة قرأتها في تاريخ الألوسي "المسك الأظفر"، يقول: "ما ضرَّ النبي قلَّة أتباعه، وما قلَّ العالم قلَّة تلاميذه".

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

---

[1] أخرج البخاري ومسلم عن ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، قَالَ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قِيلَ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلا عَذَابٍ"، ثُمَّ نَهَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ ، فَخَاضَ الْقَوْمُ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: مَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلا عَذَابٍ؟، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا قَطُّ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "أهذا الَّذِي كُنْتُمْ تَخُوضُونَ فِيهِ؟" ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَقَالَتِهِمْ، فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ، فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟، فَقَالَ: "أَنْتَ مِنْهُمْ"، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ "

- يعني: كلما دعاهم نُوح ليغفر لهم، أعرضوا قولًا وفعلًا، أي: بالكلام البذيء والسخرية، كما قال الله تعالى عن نوح -عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ [هود: 38]، وعاندوا بالفعل: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ حتى لا يسمعوا دعوة الخير ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ ، وهنا يتبين صبر الأنبياء العظيم -عليهم الصلاة والسلام، وحلم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، ورأفة الأنبياء ورحمتهم بقومهم، فما فعله الناس بأنبيائهم من الإعراض والاستكبار، ما جعلهم يصدونهم عن دعوتهم، وما قنَّطهم، ولا ثبَّطهم، بل استمروا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

- لاحظ، دعاهم ليلًا ونهارًا، أي: في السر بينه وبينهم، ثم ترقَّى إلى ما هو أشد، فدعاهم جهارًا، أي: في وضح النهار، وأظهر قوله ليسمعه القاصي والداني، وليسمعه البعيد والقريب، ثم لما أصرُّوا أيضًا ترقَّى إلى الجمع بين السر والجهر، كل هذا محاولات منه -عليه الصلاة والسلام.
- وهنا لفتة لطيفة، يقولون: ﴿ثُمَّ﴾ تفيد المُباعدة في الأحوال، يعني: كأنه قضى معهم فترة يحاول بالسر، في الليل والنهار، ومع عنادهم ترقَّى إلى مرحلة أشد، وبدأ المجاهرة بدعوتهم، وأمضى معهم فترة.

أي أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تفيد التباعد، فلما أيضًا أصرُّوا في مرحلة الجهر، جمع بين المرحلتين السابقة واللاحقة، وحاول معهم، ومع ذلك عاندوا وكابروا وما آمن معه إلا قليل.

- يجب على كل مَن أَرادَ أن يدعو الناس للخير أن يَسلك كل سبيل في ذلك إذا كان السبيل صوابًا، يعني طرق الدعوة لابد أن تكون على عِلم وبصيرة.

فعلى الداعي أن يسلك مع من يدعوه، أو مع من ينصحه كل وسيلة تكون على علم، وعلى بصيرة، وليس فيها محذور شرعي.

وتنوع الأساليب قد يفيد في تغيير مواقف الناس، فبعض الناس قد يكون التلطف معه لا يفيد، لكنَّ الشدة بحزم وعلم قد تُفيد معه، ولاحظ هذا في أولادك، أو في الصغار.

أحيانًا الصغار بالتلطف مع بعضهم يزيد، لكن إذا شددت عليه بحكمة وبصيرة؛ يتغير موقفه، والضرب لا يكون إلا بقدر، حسب الآداب الشرعية.

ومن هنا تتبين حكمة الداعي، ولهذا كان الحكيم من يضع الأمور في مواضعها، وأمَّا من يزعم أنَّ الحزم أو الشدة فيها عنف فليس بصحيح، ولهذا نجد في تبويبات شمائل الترمذي: باب في مزاحه صلى الله عليه وسلم"، "باب في غضبه صلى الله عليه وسلم"، وهكذا، فكان صلى الله عليع وسلم يغضب وقت الغضب، يحلم وقت الحلم، أمَّ إذا وضع الأمر في غير موضعه، فستصبح النتيجة سلبية.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

- نوح -عليه السلام- كسائر أنبياء الله، أدوا الرسالة، وبلغوا الأمانة، ونصحوا أممهم حق النصح، وجاهدوا في الله حق جهاده، ونوح عليه السلام نَوَّعَ في أساليب دعوتهم، فدعاهم سرًّا وجهرًا، ثم جمع بين ذلك لمَّا عاندوا، ثم رغبهم أو دَلَّهم على الاستغفار، وأنَّ الله تعالى غفار لمن استغفره، وتواب على من يتوب إليه توبة نصوحًا،

ثم أخبرهم بما يترتب على استغفارهم وتوبتهم إلى عند الله من الخير في دنياهم، وذكر من هذه الأمور ثلاثة، منها:

١) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

٢) ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٣) ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ونستفيد من هذا أنَّ الإنسان إذا دَعا النَّاس إلى خير، رغَّبهم في ما يترتب على هذا الخير، أو على هذه الطاعة، من الخير في الدنيا والآخرة.

- وهناك أثر مشهور يذكره أصحاب التفاسير: أنَّ رجلًا جاء إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فاشتكى القحط، فقال له عمر: استغفر الله، أو الزم الاستغفار، فجاء آخر يشكو الفاقة، أي: قلة ذات اليد، فقال: استغفر الله، وجاء ثالث يشكو الذرية، أي: ما عنده ولد، فقال له عمر: استغفر الله.
فَتَعَجب مَن حَوله، وقالوا: ثلاثة يشتكون بأمور مختلفة، وتأمرهم بشيءٍ واحدٍ، فذكر هذه الآية التي ذكرها نوح لقومه -عليه الصلاة والسلام.
- ونستفيد مِن هذه الآيات عِظم شأن الاستغفار، وأنَّ مَنزلته عَظيمة، وأنَّه مفتاح لأبواب الخير كلها، شريطة أن يكون على علم وبصيرة، أمَّا مجرد استغفار باللسان، يقول: أستغفر الله، أطلب المغفرة من الله، فلا.
وإن كان مُذنبًا يتوب توبة نصوحًا، وإن كان طائعًا يزداد لله تعالى شكرًا وحمدًا، ويسأله الثبات على الأمر، ويتزود من الخير، ويحسن الظن بالله، فهو وعد المستغفرين بالأجر والثواب.
- ولهذا جاء في فضل الاستغفار آيات وأحاديث كثيرة، ومما يحضرني في هذا: قوله -صلى الله عليه وسلم: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[٢]، وفي لفظ: « طُوبَى لِمَنْ وُجِد فِي صَحِيفَتِهِ استغفارٌ كثيرٌ»[٣].
- وأيضًا يقول -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٤]، وهو رسول الله -صلى الله عليه وسلم.
- وهناك كتب مصنفة في الاستغفار، وآيات الاستغفار كثيرة، ويحضرني هناك حديث: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا»[٥] إلى آخره، والحديث حد علمي فيه ضعف.
- مِن فقه الداعية أو مِن فقه مَن يَدعو النَّاس إلى الخير: أن يُرغِّب الناس في ثواب العمل الصالح، لأنَّ النفوس إذا ذُكر لها الثواب والخير في الدنيا والآخرة، تزداد نشاطًا بطبيعتها، فيذكر الداعية من يدعوهم بالأوامر

---

[٢] أخرجه ابْنُ مَاجَهْ والنَّسَائِيُّ فِي: "عَمَلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ .

[٣] صحيح الترغيب عن عبدالله بن بسر المازني.

[٤] مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُد وَغَيْرِهِمْ عَنْ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

[٥] رواه أبو داود (1518) وابن ماجه (3819)، وأحمد في "المسند (248/1)، والطبراني في المعجم الأوسط (240/6)، والبيهقي في السنن الكبرى (3/351) عن عبدالله بن عباس قال: قال رسل الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ " وضعفه البغوي في شرح السنة (100/3)، والذهبي في المهذب (1278/3) وفي تعقبه على الحاكم في المستدرك، والألباني في السلسلة الضعيفة (رقم/705).

والتكاليف الشرعية، أمرًا أو نهيًا، مع ترغيبهم، أو بيان مآل الطائعين، وما ينالونه من الخير في الدنيا، والبرزخ والآخرة، ليكون ذلك أكثر شحذًا لهممهم، وأكثر تقوية لعزائمهم.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

- يَسألهم مُستفهِمًا -عليه السلام: ما لكم يا قوم لا ترجون لله وَقَارًا، عظمةً وهيبةً وتعظيمًا. مالكم، لماذا؟ يعني لا تطلبون، أو تخافون عظمة الله وقوة الله، مع ضعفكم وقوته، ومع ذلك لا ترجون لله وقارًا.
- ثم بيَّن أصلهم، أو بيَّن ما يزيدهم توقيرًا لله تعالى إن هم استجابوا: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، يعني: من نطفة، علقة، مضغة، إلى أن سوَّاه إنسانًا.
- فذكر مآل الإنسان، وَذِكْرُ أصل الإنسان يَزيد الإنسان ضَعفًا، ويزيد المتكبر ذُلًّا، ولهذا ذكرت لكم -في المجلس السابق، أو الذي قبله- أني قرأت في بعض كتب الأدب، أو كتب الوعظ: أنَّ أحد المتجبرين دخل سوقًا فقام له الناس، إلا واحدًا ما قام، فقال: لِمَ لَمْ تقم؟ ألم تعرفني؟ قال: لا أعرف اسمك، هو ما يعرفه، ولا يضرك أني لا أعرف اسمك، لكن أعرف أنَّ أوَّلك نُطفة مذرة، وآخرك جِيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فتفكير الإنسان بأصله -لمن كان له قلب- يزيد الإنسان تواضعًا وتذللًا، فأنت أيها الإنسان كنت نطفة، وفي الأخير ستكون جثة هامدة.

هذه الأساليب إذا استخدمها المُتكلم بحكمة وتلطف وأحسن اختيارها، ففي الغالب تؤثر في المستمعين.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

- تذكير الناس بالآيات الكونية العظيمة، وربطهم بالتوحيد يؤثر فيهم بلا شك، وهذا منهج نبوي، ولهذا أعطيكم مثالًا أو مثالين:
- كسوف الشمس، وخسوف القمر، أليس آية كونية عظمى؟

ينظر الناس لهما بمنظار الفضول، وحب الغريزة، وهذا لا مانع فيه، فالإنسان يَشتاق لأن يَرى هذا الكوكب العظيم كيف أثَّر التَّغير عليه -بإذن الله تعالى، لكن غياب نظر البصيرة يحرم النَّاس مِن خير كثير، ولهذا لما حدث الكسوف في عهده صلى الله عليه وسلم حَثَّ الناس على نظر البصيرة، فماذا قال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» بيَّن أنهما مخلوقتان، رد على من عبدهم، «لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ»، إبطال ما كان عليه اعتقاد الجاهليين، «وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ»[٦]، فهما آية تخويف ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]، ثم أرشدهم: «فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ»[٧].

هذه نظرة إلى آية كونية، ربطها بالتوحيد، يعني ربط الآيات الكونية بالأمور الأخروية، وتعظيم جناب التوحيد.

- مثال آخر: حديث «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لا، قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»[٨]، وهذا

---

[٦] البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه
[٧] أخرجه أحمد
[٨] البخاري (6088) ومسلم (267) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

المنظر يتكرر في كل نصف شهر عندما يكتمل القمر بدرًا، منظر بهي، وهذا يذكر المسلم بأعظم فضائل الجنة وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة البدر، أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يجعل السامعين والمشاهدين والحاضرين ممن تقر أعينهم وأعين والديهم وذراريهم برؤية ربهم في جنات النعيم.

- فالشاهد مِن هذا الكلام: أنَّه كما قال نوح -عليه السلام- هنا في ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فالله هو المستحق للعبادة، لا تلك الأصنام التي تعبدونها، هو الذي يُخاف منه ويُرجى، ويؤمَّل ويُحسن الظن به، وذكر كل هذه الآيات الكونية العظيمة، تزيد الناصح قوة حجة، وأيضًا تؤثر في المنصوح.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

- ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ خَلَقَ آدمُ مِن تُراب، من الأرض، فذكَّرهم بأصلهم، بمبتدئهم، ثم ذكرهم بمنتهاهم ومآلهم، فهو أنبتكم من الأرض، كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ في الآية كم مرحلة؟ ثلاثة.

  ذكَّرهم بأصلهم، وأنَّ الله تعالى أوجدهم مِن عَدم، ثم ذكَّرهم بمآلهم بعد حياتهم، أنكم راجعون إلى الأرض التي خُلقتم منها، أي: القبر، ثم ذكَّرهم بالثالثة، الإخراج، وهذه الطريقة كما يُقال: فيها ردٌّ على المنكرين للبعث.

- المُنكرين للبعث احتجوا بدليل عقلي، وقالوا: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49]، رأوا العظام نخرة، قالوا: كيف لهذه العظام النخرة، والتي تَلفت مَع تَقادم الزمن تبعث مرة أخرى؟

  فأتى بدليل عقلي: ذكر بعض المفسرين أنَّ مِن نهج القرآن الرد على الحجج العقلية بحجج عقلية، فقال في الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: 39]، ترى الأرض مُغبرَّة، ثم إذا جاء المطر أنبتت، وأخرجت ما فيها من الخيرات، من الزرع، مختلفًا أكله، فالذي أحيى الأرض بعد مَوتها، قادرٌ على أن يُحيي الإنسان بعد موته، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

  نستفيد أن توظيف التأمُّل في الآيات الكونية، وربط ذلك بتوحيد الله تعالى، وتعظيم شأن التوحيد في نفوس المدعوين، يؤثر تأثيرًا عظيمًا.

  وللأسف هناك قصور في كثير من الدعوات الإصلاحية، وعند مَن يدعو النَّاس في جناب التوحيد، حيث إنَّ أغلب دعواتهم وعظية من الرقائق، وهذا خير، لكن تعظيم جناب التوحيد يجعل الإنسان يتقبل ويزداد لله محبة مع حسن ظن، كما يزاد منه خوفًا، وله توقيرًا وتعظيمًا، إلى آخره.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

- وهذا من رحمة الله تعالى، جعل لكم الأرض مهادًا، وهنا ﴿بِسَاطًا﴾، لو كانت الأرض كلُّها جبالًا، هل يعيش النَّاس عليها؟ لا يعيشون، تتعطل معايشهم، لكن من رحمة الله -جل وعلا- أنه جعلها منبسطة، وجعل فيها جبالا، لكن أكثر الأرض منبسطة؛ ليحيى الناس عليها، بدوابهم وبيوتهم إلى آخره.
- ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السلوك في الطريق المستوية المنبسطة أسهل من الجبال التي تجبر الإنسان على لزوم طريق معين.

هذا ذكر لآيات الله العظيمة، وذكر لرحمة الله وآثار رحمة الله تعالى، فكون الأرض بِساطًا، أو الأرض ممهدة، هذا من آثار رحمة الله تعالى، وكونه سهَّل على النَّاس ليسلكوا فيها السبل والفجاج.

- أيضًا أثر من آثار رحمة الله، ولهذا جاء في سورة الغاشية: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 20]، حتى يروا رحمة الله، وقدرة الله -عز وجل- في تيسير وتسهيل وتسخير هذه الأرض، ليعيش النَّاس عليها، يضاف إلى ما سبق أن يضمَّن دائمًا في توعية الناس تعظيم التوحيد، وذكر الآيات، وربطها بتوحيد الله تعالى، وتحبيب الله تعالى إلى خلقه، وبيان فضل الله تعالى وسعة رحمته، وأثر حسن الظن به وتوقيره سبحانه، كل هذه تخلق في قلب الإنسان أمورًا عظيمة من الثبات والاستقرار النفسي والبدني، مع الاطمئنان وقرة العين، وانشراح الصدر.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

- مع كل ما بذل نوح -عليه السلام، يعني اجتمع طول زمنه، وتنوع في أساليب الدعوة، والترغيب والترهيب، وتعظيم شأن الله، والدلالة على الآيات الكونية وأثرها، وعظم خالقها، ومع هذا كله عصوا.
- ولو أنهم عصوا واستحيوا، لكان ذلك شرًا، لكنَّ الشر يتفاوت، لاحظ ماذا قال: ﴿عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا﴾ لاحظ .. تركوا اتباع نبيهم -عليه الصلاة والسلام، واتباع ضُلَّال أقوامهم، فالذين اتبعوهم هم ضُلَّال، أضلوا أنفسهم، وأضلوا غيرهم، ولم يقف عنادهم عند هذا الحد، بل ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ من باب التعظيم، أنَّ مكرهم كبير وشديد وعظيم.
- لاحظ أنَّ نوحًا بذل معهم غاية النَّصح، وغاية الترغيب، وغاية الترهيب، وكل الأنبياء هكذا، ومع ذلك قابلوا ذلك كله بغاية العِناد، وغاية الاستكبار، ومع هذا كله فالأنبياء لا يقنطون، ولا يتركون دعوة قومهم، وما فعله نوح عليه السلام أنَّه أخبر ربه، وربه أعلم بحاله.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

- هذا من غيّهم، ومن شدة غيّهم أنهم أوصوا قومهم أن يلزموا تلك الأصنام، وأنها هي الآلهة، وحذَّروا قومهم، ونهوهم ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾.
- عندما يقرأ الإنسان هذه الآيات يقول:

مَا أصبر الأنبياء!

ما أجلد الأنبياء!

ما أعظم احتساب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام!

- فينبغي للإنسان أن يُوطِّن نفسه، وأن يسأل الله تعالى العون والسداد، ولا يفتر ولا يقنط، بل يفعل الأسباب الشرعية بعلم وبصيرة، وتبرأ ذمته، ومن أطاعه فهو مأجور، ومن عصا أمر الله فهو مأزور.
- ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هنا أُحبُّ أن أذكر لكم بعض المسائل: هؤلاء رجال صالحون -رحمهم الله- وكانوا أهل توحيد، رجال صالحون من قوم نوح، وقيل: كانوا قبل نوح -عليه السلام، وكان قومهم يعظِّمون شأنهم في حياتهم فلمَّا ماتوا وتقادم الزمن على أقوامهم، قالوا: نخشى أن ننساهم، فسوَّل الشَّيطان لهم أن يصوِّروا صورهم، مِن باب أن يتذكروهم.

لاحظ كيف كان التساهل بالأمور العقدية والتهاون فيها.

- فصوَّروا صورهم على أصنام، فذهب من صوَّرهم ومن بعدهم، وتقادم الزمن، ونُسخ العلم، وذهب مَن كان يعرفهم، فجاء أقوام من بعدهم، ماذا فعلوا؟

عبدوهم من دون الله تعالى، ولهذا بعض الناس يخطئ فيشتم هؤلاء، وفي الحقيقة هذه أسماء رجال صالحين -عليهم رحمة الله، والذنب ذنب مَن صوَّرهم وغرَّ النَّاس بهذه التماثيل.

- هناك أثر أنَّ هؤلاء هم خمسة أبناء لآدم، وهم خلاف من ذكرهم الله في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ [المائدة: 27]، وقد سمى بعض المفسرين ابني آدم بـ "هابيل وقابيل".

أمَّا هؤلاء الخمسة فقالوا: هم خمسة أبناء لآدم، وذكر بعض المؤرخين أن أقوامهم من بعد موتهم عبدوهم.

- قال أبو عروة الحنبلي: في هذا رد على المؤرخين الذين يزعمون أن بني آدم عبدوا الأصنام، يعني صلب آدم ما بين عهد آدم ونوح -عليه السلام، وهذا الكلام باطل، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما: "بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الشريعة، فلمَّا اختلفوا بعث الله الأنبياء".

فكانوا على التوحيد عشرة قرون، حتى دخل فيهم عبادة الأصنام، فضلوا وأضلوا.

التهاون دائمًا بأبواب المحدثات والبدع يفتح للناس أبوابًا كثيرة من الشر، ولهذا قال البربهاري -رحمه الله تعالى: "واحذر صغار المحدثات من الأمور، فإنَّ صغار البدع تعود حتى تصير كبارًا "، والنفوس إذا لُبِّسَ عليها تصدق.

- ذكر أن هؤلاء أضلوا كثيرًا، ثم قال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ ، دعاءٌ عليهم، لمَّا عَرف مِن مَآلهم وحالهم أنهم سيزدادون غَيًّا، وأنه -عليه السلام- أوحي إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: 36]، ومن آمن؟ ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40] وما ضرَّه قلَّة العدد.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾.

- ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44]، وفي الخبر القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[٩].

---

[٩] أخرجه مسلم(4680).

- فهنا: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ عدلًا يُعطي الله مَن يَشاء فضلًا، ويعاقب من يشاء عدلًا.

وهنا فائدة أيها الأكارم، قرأت في بعض كتب التراجم: أنَّ أحدهم زار عالمًا، فقال هذا الزائر للعالم: نسأل الله أن يُعاملنا بعدله، قال: لا، إن عاملنا بعدله هَلكنا، ولكن قل: نسأل الله أن يعاملنا بفضله، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: 45].

- هنا يقول: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ بسبب خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ جمع بين أمرين: بين الإغراق والنار، يقول الضحاك: إنهم لما جاء الطوفان كانوا يغرقون من جهة، ويدخلون نارًا من جهة أخرى، وهذا القول والله أعلم ليس بصواب، بل القول الصواب هو قول مقاتل: إنهم في الدنيا عوقبوا بالغرق، وبعد موتهم بالنار.

- ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ، ﴿لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: 52]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]، لا يغني والد عن ولده، ولا مولود عن والده، تَذهل المرضعة عن ما أرضعته، وتذهل الأم عن صغيرها، لم؟ ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: 41].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ عَلِمَ بوحي الله أنَّه لن يؤمن أحدٌ منهم.
- ﴿دَيَّارًا﴾ إمَّا من الدار، في دورهم، أو مما يدور في الأرض، فالمهم لا يبقى منهم أحد.
- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، لو قال لكم قائل: ما الجمع بين هذه الآية، وبين حديث عمر: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ[١٠]»؟
- هنا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، والحديث: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ».

قال بعض أهل التفسير: إنَّ نوحًا -عليه السلام- علم بوحي الله له، لما قال الله له: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: 36] عَلِمَ. وهناك تفسير آخر: قال: علم أنَّ هؤلاء الأبناء آباؤهم معاندون، وأنهم مصرون على عنادهم، وسينشئون أولادهم على ما هم عليه، فيحذو الأبناء حذو الآباء.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

- ﴿رَّبِّ اغْفِرْ﴾ من هذا الذي يدعو؟

نوح -عليه السلام، وهناك عقيدة ضالة يستغني أصحابها عن الدعاء، ويقولون: لا يدعو إلا من كان في إيمانه نقص، وهذا -نعوذ بالله- ضلال مبين، وطعن في مقام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، وهم أكثر النَّاس دعاءً مع كرامة منزلتهم، ورفيع مرتبتهم وشريف مقامهم.

- ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهنا ملحظ من نوح -عليه السلام- برُّ الأنبياء هو الأعظم لآبائهم.

➢ من أعظم الناس برًّا بوالديهم؟

---

[١٠] أخرجه مسلم (2658)

الجواب: الأنبياء أعظم الناس بِرًّا بوالديهم، سواءً كانوا على دينهم أو كفارًا، ولهذا قال نوح -عليه السلام- هنا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ ، وإبراهيم الخليل -عليه السلام- كان بارًّا بوالده: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 42 - 45]، أربع نداءات تدل على رقَّة البنوة في مخاطبة الأبوة. ويحيى -عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: 14]، وعيسى -عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: 32]، لماذا قال يحيى -عليه السلام: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وعيسى -عليه السلام- قال: ﴿بِوَالِدَتِي﴾؟

والرسول -صلى الله عليه وسلم- كان بارًّا بعمه، بأبي طالب، «أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»[11].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[11] رواه البخاري (4494)، ومسلم (24).